

مالك ثان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والمحاجز الى الاندلس والجزر المتوسطية كصفية والريقيا حيث استدلت من مصر الى تونس والسودان والمغرب الاقصى (٩) واذا كان هذا المذهب قد تعرز بالأندلس بنفضل يحيى بن يحيى البيشى الذى كان مكتينا منه الامويين وفي افريقية بنفضل سخنون صاحب المدونة (١٠) فانه تذكر هنا لاسباب شئ منها ان الادارسة ساندوه لساندة مالك بيعة العلوبيين وتقدير البرير لمدينة الرسول عليه السلام ولعادتها التي اعتبر مالك العمل بها دعامة لمذهب مع افراط صالح المرسلة وتحكيم الامراف التي لا تمطدم مع روح الشرعية وابن الولى ادريس الا ان يستند القضاء لتلميذ مالك وسبيان الثوري محمد بن سعيد القبس (١١) وقد نشات جامعة القرويين عام ٢٤٥ هـ في احسان هذا المذهب كجامعة ترتكز فيه دراسة علوم الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر معبداً ومهدًا يأوي إليها الغريب ويجتمع في حلقاتها طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث أن أصبح في القرن الرابع مهبطاً لرواد الفكر ينطلقون على حاصمة استوطنهما فربطيون وقيروانيون من رجال

باقمات والروافض بالاطلس الكبير (٢) والجلبيين (٣) بوسوس وقد استحصل المرابطون في صراغهم ضد البرهواطبيين شالة هذه الطوائف التي اسهمت نعوا من ثلاثة قرون في نشر الريبيه ضمن دعاويمها المقالدية .

وكانت ناس متفرق لشئ المذاهب السنية فقد مرفت مذهب الاوزاعي ومذهب ابن حنيفة قبل ان يستقر فيها مذهب امام دار المجرة وكان الاوزاعي امام اهل زمانه - كما يقول مالك - وكذلك في الاندلس الشام نحو مائتي سنة (٤) و كذلك في الاندلس قبل الامويين (٥) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى الاندلس وناس حيث لم يعتد المراجع بين المذاهب لانصراف المغاربة الى المذهب المالكي على ان الامام ابا جيدة القافي قد حمل معه من الشرق والشرق شافية (٦) بالإضافة الى نضله في التفاصيل المالكية بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنفي بالرغم مما اشيع من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المقرب (٧) وكذلك للمذهب الظاهري الذي نزمه ابن حزم بالأندلس في القرن الخامس (٨) . اما مذهب الامام

(٢) حسب ابن حوقل وهو اباع موسى الكاظم الذي اخذ له والده جمفر الصادق البيعة بعد وفاة ابنه اسماعيل ( الامام السابع للسامانية ) وقد رفضت البيعة لموسى نعرفت بالرافضة التي وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .

(٣) اباع علي بن عبد الله الجلسي بمساية وثارودانت .

(٤) خطط الشام لمحمد كرد على .

(٥) مدارك القاضي هياض ( ج ١ ص ٦٦ ) الى ان يدخل الى مالك فرسوس وشبطون زياد بن عبد الرحمن الذي ادخل الموطا الى الاندلس وفبرهها فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب مالك حوالي ١٧٠ هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المفتين معصومة بن سلام تلميذ الاوزاعي واما مذهبة قد ادخل كتاب الحديث الى الاندلس ( جلدة المقتبس للحميدي طبعة ١٩٥٢ من ٢٢٧ ) وقد لاحظ محمد كرد على ( مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٠ من ٣٢١ ) ان بعض المذاهب كالمذهب الاوزاعي لم تكن تقل عن غيرها شيئاً غير ان الملوك لم يغضدوها ولم يتم بها الخامسة والعامة واللاوزاعي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمسة وثلاثين مسألة حرية اي من القانون الدولي العام وانتصر الشافعى في كتابه الام ١ ج ١٧ لاكثرها .

(٦) توفى ابو جيدة حوالي ٣٦٠ هـ ( سلوة الانفاس ، ابن جمفر الثاني ج ٣ ص ٩٣ طبعة ناس الحجرية )

(٧) كما ورد ذلك في الاملام للزرکلي ١ ج ١ ص ١٩٢ ) وفي شعراء ب福德اد للخاقاني ( ج ١ ص ٣٨٦ ) و مجلة اللسان العربي ( عدد ٣ عام ١٩٦٥ ) .

(٨) لاحظ احمد امين ( ظهور الاسلام ج ٢ ص ٧ ) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسين مذهب .

(٩) الديبايج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص ١٧ .

(١٠) ( جلدة المقتبس ص ٣٦٠ ) .

(١١) الجستدة من ١٣

تعريدها من الحديث والقرآن كمدونة سخنون (14) وكتاب ابن يونس ونواودر ابن أبي زيد ومختصره وتهذيب البرادعي وواحة ابن حبيب مستفيضاً منها بأحاديث اقتبست من المصنفات المشرفة على غرار ما نسقه ابن تومرت من أحاديث الطهارة فعنadar المنصور يعلمهها بنفسه كما يفعل السلطان العلوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15) وقد انتشرت هذه الجامعات وحفظتها الناس من العام والغواص (16) وكان فيها ثراء لغة واندرجت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية مات الكلمات ذات الأصل القراءاني والحديثي الفقهي . وعلمون أن الأشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكن له ينكر أيضاً قيمة العقل للذك هدف إلى إبراز « موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح (17) ولم تكن هذه الافتراضات الموحدة خلوا من دخيل سياسى كالهدوية الشيعية التي مز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة الهدوية أحاديث وأثار وأخبار أوصلها ابن أبي نعيم إلى الأديرين وأنساب إليها السبوطي المصري ما نعاها وحللها فراجت في المغرب وأثارت موجة من الاتهامات حملت ابن خلدون على تقضيها وتفصيل القول في مناكرها ومع ذلك ظهر متنبئون كابن هود الماسي وحاميم الشماري وأبن أبي محل ووهد الكهان مجالاً واسعاً لخاريق اسندوها إلى حسابات العفورية وهي جداول منسوبة إلى جعفر الصادق أمام الشيعة مخشوّة بالتنبؤات من ماجربيات المستقبل بارقام ومربيات أصبحت لفترة لكتاب

الفقه والسنة وكان جامع الأزهر (12) يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لأفريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القبروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادرة الجنوب أول مدرسة مزدهرة في المغرب كدار للرابطين يلقن فيها القراءان ومبادئه العلم اسماً وجاج بن زلو المطعي تلميذ ابن عمران الفاسي الذي كان انتهى به المطاف في تجواله لاتجاع العلم والمعرفة إلى حاضرة أفريقيا حيث بُرز أمثال أسد بن الفرات وسخنون وأبن أبي زيد القبرواني والقبسي من رجالات الفقه والأصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القراءانية السبع إلى أن اختار المغرب كالقبروان قراءة ثانٍ من بعد صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القراءان في الكتابيب التي كانت مجرد جناح في المسجد ( ولذلك تسمى المسجد وهي تحريف مسجد ) وكانت للعوامل السياسية بد قوية في الاختبارات المقابلية إذ ما كادت مثلاً مخطوطات « أحباء علوم الدين » للقرآن تنشر بال المغرب حتى انبرى خصوم المهدى بن تومرت من الرابطين يدعون إلى تعريرها لما شاع آنذاك من العمال « الرجلين (13) و كان لشرب المفاهيم والتعابير الفلسفية الغزالية التي رأها في أوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدى بن تومرت أن حملهم على عقيدة الأشعري السلفية من تأويل مشابه القراءان والحديث استناداً إلى ضرورة المجازات مما يتلامد وروح الشرع وبعده العقل والطبع ومحظى المنصور الوحدوي التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للأصلين على طريقة الاجتهاد المطلق وأحرق كتب الذهب المالكي بعد

(12) بني جامع الأزهر جوهر الصقلاني عام 359 هـ أو 360 هـ في حين فايس جامع الزيتونة سنة 141 هـ 758 مـ (صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ يرمي ج 1 ص 122)

(13) أكد ملاقاة ابن تومرت والقرآن ابن الخطيب في الحل واليوسفي في المحاضرات والراكتش في تاريخ الدولتين والزيديي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب الموجب وقطع بنفيه ابن الابير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف نعم وجود الدليل على هذا اللقاء .

(14) أول من أدخلها إلى فاس دراس بن اسماعيل المتوفى عام 362 هـ

(15) إلا أن هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت من تدريس الأصول إذ لم يبق في نظره اجتهاد الانحراف لابن ريدان ج 3 ص 213).

(16) الموجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا مـ 1357 - 1938 ص 177)

(17) هذا منوان كتاب للحافظ ابن بيمية وقد ثار أبو بكر بن العريسي في كتابه (التواسم والمواصم) ضد ما أصاب العلماء في مهد الرابطين من جمود على تفاصيل الذهب ضد طريقة التعليم التي تدريجت وانذاك من تلقين القراءان إلى الأدب ثم الموطا فالمدونة فوالتق ابن العطار فاحكم ابن سهل .

الذى مرف فى مصر بابى الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الغلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشى<sup>(21)</sup> للميد امام العتابلة الشیخ مولای عبد القادر الجیلاني وقد درس الحديث والفقہ بفسدад ومحمد بن الخصار البستي الذى سمع من ابن الصلاح كتابه فى حلوم الحديث<sup>(22)</sup> وعلى العرائى الذى كان ابتدع فى التدريس منهاجا « يتنزل فى التفسير منزلة اصول الفقه فى الاحکام » ملاوة على تبريزه فى النطق والطبيعتات والاهيات<sup>(23)</sup> ومحمد بن ممران الشریف الكركي الفاسی شیخ المالکية والشافعیة بالديار المصرية والشامية<sup>(24)</sup> وبونس بن طریفة القصري الذى ولی التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الانصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحیة الخالدة فى العالم الاسلامى ويرزت نصیح هذا الشق الثاني من جنابی العروبة کاملة ما تكون العربية فى اصالتها وجزالتها ودقّة مصطلحاتها فى الغلاف العالى والتغایر الفقہیة وبذلك يمكن القول بأن الانتجاج المغربي قد اخذ مع الشرق فى هذا المجال مبنياً ومنسیاً على ان نزعة الاصلاح والتجدد لم تقتصر على الطب والصيدلة والکیمیاء والفلسفة - كما سترى بحوالى الله - بل شملت حتى حلوم الاله کنثیریة ابن مضاء قاضی<sup>(25)</sup> قرطبة ایام الوحدین انکار العامل فى التحو ، وقد اصبحت فاس<sup>(26)</sup> آنذاك بجماعتها حاضرة المغرب العلمیة وملتقى علمی<sup>(27)</sup>

المشودین وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقاً لاستبعادهم من ملوك الطلاسم والتنزيلات الروحانية التي تخللت تمايزها حروف سريانية وعبرية وتدخلت هذه المعطيات مع اسرار التجسيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك الاره فى تعقيد التأويلات القراءانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذى علل لنا ببراته بعض مناصرها مشيراً إلى تكتنفات مالك بن وهب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذى استغل فى دعاوته هذا الاستعداد الفطري فى نفوس العامة فيما يناسب رابطة للمباد جمع فيها طلبة القبائل ولقائهم تعاليم التوحيد بكتابه « الرشدة » بالisan البربرى ولقب انصاره بالموحدين ومهما يكن فان سوق القرمان والحديث تفق نظير اول تفسیر للقرءان لابن مطیة اقتبس من كتاب الزمخشري مجردًا من مناصر الامتنال كما تتمد للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون الوابي الطنجي الذى اقام يقرر الحديث فى الشرق ولم يدخله حتى حفظ - كما يقول ياقوت - اربعة وللابن لف بيت من شعر الجاهلية<sup>(18)</sup> و محمد الجباني<sup>(19)</sup> البغدادي الذى روى عن الطبرى وجلب من تأليفه احكام القرءان واصول الفقه والرد على ابن حنبيل وسليمون بن ياسين الذى قرأ على الطبرى صحیح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعی الذى ولد بقصر شنامة بشمال المغرب وعمر بن الطویل المراكشى<sup>(20)</sup>

118 معجم البلدان ج 6 ص 62 (19)، تونى مام 546 هـ (سلوة الانفاس ج 3 ص 267) (26)

120 توفى عام 622 كما في الذيل والنكلمة .

121 الاعلام للمرکاشی ج 4 ص 883، 221 توفى بدمشق عام 634 هـ (درة العجمان ص 282) .

123 حتى كان يقضى النجاة لابن سينا ائل الابتهاج ببابا السوداني ص 187 . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة للابن علمًا وحده وشريكه الناسف ملومهم (الدبياج المذهب لابن فرون ص 286)

125، احمد امين اظهور الاسلام ص 118 حيث لاحظ نقلًا من ابن جنی « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجرم انتها هي للمتكلم نفسه لا لشيء غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملًا في زيد او عمرو .. »

126 المعجب للمرکاشی ص 221 .

127 وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اکلينشار الذي زار المغارب مام 948 هـ (1540 م) وكتب رسالة باللاتيني من القرويين وموالى الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين ولعله يعني الكتايب القراءانية .

التوقيت والتعديل والتوجيه والمنطق والبيان والطب  
وسائل العلوم المقلبة ..

وقد تابع مات العلماء رحلاتهم الى الشرق نذكر  
 منهم كنماذج لنوع التبادل بين الجناحين :

- تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي 701هـ  
 752هـ ، الذي اعاد بقية الشافعى بالقاهرة وولى  
 تدريس المسوورة ودار الحديث الاشرفيه حيث  
 خلفه تقى الدين السكى (31) وابن المواقى احمد  
 الشجاعى الذى استظرف الوطا بمصر فضرب شيخوخ  
 المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحذث القىبه الناواوى بن سودة الفاسى شيخ  
 مرتضى الربيدى (33) .

وابن ذكى الفاسى الذى عقد علماء الازهر  
 مجلسا لمناقشته فى التفاصيل الفقهية كثرب  
 الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهونى الحافظ الاديب  
 المنطقي الذى تولى التدريس فى المتصورية والخانقا  
 الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشى الذى  
 سمع من شيخوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث  
 ولى مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابى البركات المكتانى شيخ المحدث  
 الحافظ ابن حجر المستقلانى (37) ومحمد تقى الدين  
 الفاسى الذى وافق ابن حجر فى المقام بعض  
 والشام واليمن (38) .

وابن الغفرانى المراكشى المصرى الذى ذكر المقربى  
 انه كان يحفظ المدة والالامام لابن دقيق المبا

القبروان ومرتبة وتركت فى القرويين بالإضافة  
 الى علوم التفسير والحديث والاسموں والفقه والعلوم  
 التقليدية كالنحو والبيان والمعانى والبديع والمنطق  
 والعروض والكلام والتوجيه والتصوف واللغة  
 والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات  
 ( وهي الحساب بالغرب ) والجغرافية والتاريخ  
 وتزيادات افواج الطلبة الواردین على فاس من مختلف  
 الانطارات الافريقية والغربية مثل جيربير Gerbert  
 الذى میں بعد ذلك على رأس الكتبة باسم البابا  
 سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999م ودخل  
 الارقام العربية الى اوروبا . وقد مرت دولۃ بنی  
 مرين هي الاخرى نظامها السباسي بتكييف الطلبة  
 تحت شمار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة  
 الصوفية وتشجيع الروايا والاضرحة التي ترقى  
 فيها - كما سترى - سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها  
 ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها  
 ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الانفكار فى هذا الخضم من البدع  
 التي فوتت السنة فى مقر دارها فان العلم بالغرب  
 ظل محاطا بسباق من القيادة بالرغم من فقدان  
 الملكة والتحقيق العلمي - كما يقول ابن خلدون  
 (29) وغلبة الاستظهار حتى قال على ابن ميمون الذي  
 زار الشرق فوافى بين فاس وبين حواضره فى الشام  
 والمحجور ومصر من حيث الاصالة العلمية فقال :  
 « ما رأيت مثلها (اي فاس) ومثل علمائها فى حفظ  
 ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وفرارة الحفظ  
 لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة  
 من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل  
 علم مثل النحو (30) والفارقش والحساب وعلم

(28) مفضل العذري صاحب الشرطة والحسبنة يناس اول من سن سن بناء المدارس ( جذوة  
 الاقتباس لابن القاضى من 220) وقام شهيد بناتها محمد الابلى العبدري شيخ ابن خلدون  
 ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس بايده بابا السودانى ( نيل الابتهاج من 246 ) وقى  
 بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هي مبارقة من احياء جامعية اي مساكن للطلبة تحتوي على غرف  
 (29) نشر المثانى للقادري ج 2 ص 97 .

(30) كان موسى بن زيري المسكوري المعروف بالخاري يحفظ كتاب سيبويه من ظهر قلب ( درة العجال  
 - طبعة الرباط 1934 ص 314 ) (31) المدارس فى تاريخ المدارس للتعبيمى ج 1 ص 458 (32) توفى  
 عام 725هـ ( السلوة ج 3 ص 244 ) (33) راجع مادة سود فى شرح القاموس للربيدى .

(34) المسورة ج 1 ص 83 . (35) توفي 774هـ ادرة العجال من 490 . (36) مات عام 823هـ الاعلام  
 للزرکلى ج 4 ص 50 وذیول طبقات العفاظ . (37) الامامة ج 4 حرف م . (38) نيل الابتهاج من 318

ولم يحظى المغرب الأقصى في مختلف العصور بزور من علماء المغرب اذا استثنينا الوالدين في مهد النصوص السعدي ( اي أوائل القرن العادي عشر المجري ) من العجائز واللسطيين ومصر والشام والمرأق والمند وقد سبق لصلاح الدين الإيوباني ان يبعث ولندا الى النصوص الوجهى عام 585 هـ يطلب منه امداده باسطول لمحارسة مكة وسور طرابلس الشام واولئك اليه ابا الحارث ميد الرحمن بن منقد مع رسالة من انشاء القاضى الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقد مطلعها :

أشكر بحراً إذا بباب نعمته

إلى بحر جود ما لا خراء ساحل

وكل من الرسالة والقصيدة لا تختلفان في معنائهما ومبناهما عن اللون العادي المتحجر الذي وسم الأدب العربي في هذا العصر شيئاً فشيئاً والذى جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستنصح حضرات الآخوة (1) ان ازمعتهم باللائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائها اعطاء صورة عن العباءة علماء المغرب الجديد في اعطاء الاسمية للعلوم الاسلامية لاسيما منها التفسير والحديث والفقه مما اضفى على دراساتهم - رغم كلاسيكيتها وتقاريبها الاستطرادية الملة - طابعاً خاصاً جعل منها مرجحاً هاماً في تاريخ التشريع الاسلامي وتاريخ تطور اللغة واذا كان الرجالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب العوجز الاستعماري التي اتيت في طريق العجيب بالجزائر منذ عام 1830 م فان المغرب ظلل مع ذلك يتبع بنهجه جميع حركات التجديد المبثقة من الشرق ويبالي بعث ونور رسمية تحمل دورياً هدايا وصلات لرجال الفكر وارباع الاوقاف المرصودة لامانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبد

والشاطيبين والطوالع في اصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه وال حاجبية والملحة وغالب الفبيه ابن مالك والتلخيص وقد طارج الادباء وقرض الشمر وشارك في اللغة والطب والبيهه وولي تدريس الفقه في معه بجامع الحاكم والقرانسترة والحسنية والحديث بالفاضلية والامادة بالكامليه والمنصورية (39) .

وبعد الرحمن سقين الذي اخذ الحديث من القلقشندي وزكرياه الانصاري والسعاوي مصر ومن ابن فهد بعكة (40) .

وأدريس العراقي الفاسي الذي كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطى تليف على الخمسة الالاف وكان احفظ من ابن حجر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروذانى الفاسي الذي وصفه صاحب خلاصة الافر بأنه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد النطاف بمصر والهجاز والشام وببلاد الروم الرياسة العظيم في علوم خاصة بالطبيعي والالهي والرياضي والارياتي والمساحة بالرمل والعرف والسماء (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية العمة (43) .

ومدرسة الشيخوخية كانت اكبر مدرسة بمصر نظم فيها علماء مغاربة ببروزها في شتى المعلوم الفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكرييم لفاسي - كما يقول تيمور - (45) نهضة متواضعة مناعة الخرف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى العائطيات بالغرب) تحفية جدران المساجد وتوجد الان نماذج منها في ار الالار العربية بالقاهرة .

(39) توفي عام 872 هـ ( الاعلام ج 4 ص 125 ) (40) الاعلام ج 2 ص 160 .  
(41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 ( الاعلام للزرکلي ج 4 ص 334 ) .

(43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .  
(44) نيل الابتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصر في اخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي .  
(45) الوثائق المغربية ج 11 ص 1907 ) .

(46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شئ ملىء مكاتب القاهرة والسكندرية وجبل كتاب من الشرق ورتب لأهل العجائز والبيه مائة الف مقال ذهبي كل عام ( الاجتماع لابن زيدان ج 3 ص 251 ) والمقابل الذهبي قد هو ضم الدين بالغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787 وكانت تباعه أقل من الدينار .

دائمة ما فتنه يبذلها رسول الفكر طوال ألف عام من الاستقلال الا ان المغرب الانفص دبوا انفرد بسون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والمتون الفقهية والتصويم النحوية وحتى المعاجم اللغوية . في شنقيط وسوس ، مما فسع المجال سمات المفردات العربية الخالصة التي ظهرت لغة الخاصة والعامة وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا ويحضرها الجمهور في مختلف المساجد ) وما اكتنافها بالغرب حيث يفت بناس وحدها في عهد الموحدين زعماء خمسين وسبعين ، اثر قوي في توعية الشعب وتفضيحة لسانه حتى اصبحت الاي القراءة والاحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وامس القراءان معجم الساكين – كما يقول المثل العامي – يصحون منه اللغة وادا نصرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المجم الصوفي من القراءان » فان حرف الالف منه يبلغ المائة منها كلمات الاخلاص وارذل العمر والاستدراج والاستغفار والاستقامة والاسراب والاصنام والاطلاق على الفيف والامتنام والاقتصاد وافتخار الجلة واللوح والامانة والامتثال والانابة واباء الغرب والاندار والانتساب والانفاق والاواعن والاواعن والوابي والحاد والآلة والآيمان .

وقد دخلت كثیر من التعبير القراءية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » اي ماد طبقا لما قدر في الاذل ) « قاتلهم الله » « اخذوا فاقتلوه » ( وهي كتابة من فعل الشيء باستعمال وبالله وتعال ( بمعنى تعال والت ) وقل باسم الله او توكل على الله ( اي اشرع في العمل ) والصلوة على النبي ( اشارة الى النهاية او الكفاية خبرا انشاء ) ولا الشالين ( كتابة من المواقفة بدلا من نعم وبالتالي هي احسن اي بالعمل ) الى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت الى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوى الشريف قوله حج فلان ( اي بلغ الغاية ) وصلى عليه صلاة الجنائز ( اي يشى من خيره وشره واعتبره كانه مات ) وکفر عليه ( اي افتداه منه ) وفلان حال واحوال اي كثير التغير ) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفين وهما « الماهر » بمعنى المراحب ( وتسمى هذان ايضا الميساء طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « انحدروا على ابواب مساجدكم الماهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كلهم .

الله عصر الموحدين بالدعوة الى السلفية ودراسة الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وفسرب بذلك امثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما اصدر نجله السلطان سليمان رساله نحا فيها منحي السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السنى وعدم التناهى في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبد الله بن سعدود قد وصل « انذاك الى تونس وناس يحتل اسس الدعوة الوهابية اي المذهب السلفي كما يراه محمد بن عبد الوهاب ) فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب الى العجائز نجله الامير ابراهيم في ونسه من العلماء لمناقشة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما من روح اسلامية ثيافة اهل الشمال الافريقي لاحتضان التراب الاندلسي ولربط امجاد الماضي والحاضر والشهر على معطيات الفكر الاسلامي في سلفيته الحق ولطبع الاجيال المتالية بسم الثانية في نطاق الوحدة الاسلامية وكانت هذه الروح تذكر حتى المرأة في خدرها بالرغم من الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الامية بين النساء واذا كانت المرأة هي المدرسة الاولى للحياة والنواة الجوهرية للعم الوعي الديني داخل الاسرة فان حصانة المرأة المغربية قد جعلت منها – بالرغم من ثقافتها المحدودة – مربية بارعة تضرب المثل التي يرسانة تفكيرها وحسن تدبيرها على ان لله من النساء قد نبغن – على قلتهن – في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الاسلامية كخريونة الفاسية والشيخة ام قاسم الاسفية وام هاني البدوسي، وقد توالت بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانشرت الاف الكتابات القراءية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافند للكليات والماهاد « الاصلية » التي اطلق منها الاعمال الدينية بلغة القراءان وقد ظلت جامعة القرقوين طوال مدة الاحتلال الاستعماري مبنية على الاحرار الدين اجسوا نار الثورة وولقوا الصلة مع زعماء الاسلام في الشرق امثال الانهانى ومدنه ورشيد رضى – بعد ما اولتها دسائس الاستعمار .

وهكذا تستجل من هذا الاستعراض لتطور الفكر الاسلامي في المغرب الانفص صورا لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود

وما أنتهت للجوف فهى الجائفة  
 وقوله :  
 والرائق داد الفرج فى النساء  
 كالقرين والمفل والانفاس  
 والبضع بالبضم هو الشفار  
 ومقدنه ليس له فرار  
 وسمى الشامس بالجميل  
 كسداك بالزبيب والكفيل  
 والعنص بالجنس هو المراطلة  
 بالوزن او بالمد فالتبادلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه فى الشرق من  
 هذا الإيجاز الغاucher الذى حررت الملازم « العديدة »  
 لحل الغاucher كمحض الشیخ خلیل المصری الذى  
 ادخله الى المغرب منذ القرن الثانی البھری محمد  
 ابن الفتوح المکناسی (49) والذی حفظه الطلبة وحنی  
 العامة من ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الاسلامية  
 قد اسهمت بحظ وافر فى تطوير لغة الفساد بهذا  
 الجناح الغربي للعروبة . غير ان التعليم الاسلامي  
 ما لبث ان تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والارشاد  
 في المساجد وما تستتبعه من نووية شعبية من طريق  
 اللغة العربية وبدأت الاذاعة والتلفزة والصحافة تقدم  
 يوميا للشعب حصيلة لا يأس بها من مصلحات  
 المعرق تعزز احيانا بفتاوی دینية تصل بين ماضي هذا  
 البلد المسلم المحافظ وحاضرها المتأرجح بين مختلف  
 التبارات ورأى حماة العربية من رجال التروبيين  
 وغيرهم في ذلك مأساة تستقبل اللغة في رونتها  
 الاصلية تحدث خفافاتهم اليقظة الجيل الجديد الى الدعوه  
 لعربیة مصرية تستجيب لمتطلبات العصارة الحديثة  
 وللتقييات الملحمة في دقتها ووضوحها .

فمن احمد بن حنبل ان زوجة ابي حميد السامدي  
 قالت : « يا رسول الله انى احب الصلاة مرك »  
 قال : « قد علمت انك تحبين الصلاة مهي وصلاتك  
 في يبنك حبر من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك  
 حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك  
 خير من صلاتك في مسجد قومك » واما كتب الفقهاء  
 فقد دفت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها  
 مات الشروح التحليلية واصبحت لفتها من اعمق  
 اللغات دلالة ووضحا وقد وضعنا معجما للفقه  
 المالكي ( بالفتين العربية والفرنسية ) (47) يعطينا  
 صورة من مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه  
 الانفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالاشارة الى  
 كلمات من حرف الالف كابراه واتفاق العلماء والباحثين  
 الدليل والاجبار والاجتهاد والاجارة والاجرة والاجل  
 والاختبار والارتداد والابراء والاستحقاق والاستحصال  
 والاستئماع والاحتى الد والاصل والافتراض  
 والافتاء والاقالة واقامة الحدود والاقرار واقامة  
 البيعة والامر بالمعروف وامضاء البيع وامارة المؤمنين  
 والاتفاق والانكار واهل الحل والمقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالغرب  
 مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي  
 نفسه حيث فرضت فاس مثلا نظرها الخاص في  
 تفاصي قانونية ونظامية تجلت في العمل الفاسى الذي  
 نظمه الشیخ عبد الرحمن الفاسى وشرحه الشیخ  
 الجلمسى .

وقد منفت الآلاف من الكتب في الفقه  
 والفتاوي والنوادر والاحكام بذلك ما عرفه الشرق  
 وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والمدلولات  
 التي توخر بها تلك المصنفات حتى صار المدرس  
 الفقهي في كراسى جامعة التروبيين مبارأة من تحليل  
 تلك التعاريف (48) التي كثيرا ما تنظم ثمارا  
 تكون ابن ماسى في تعرفه :

(47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المجم الصوفي (ص 176) .

•

(48) هربت تونس ابضا شيئا من ذلك بتجلى في تصریفات ابن عرقه .

(49) المتوفى عام 818 هـ ( درة العجال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة الى الاندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو اول من نقل كتاب العین (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرسى ج 1 ص 294) كما نقل ابن الصابطي عثمان بن ابي بكر الصدقي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلميزي شامل بحرا وشرحه لمختصر خلیل وحواشي الفتاواى على العضد وابن هلال على ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) اما في الادب والفلسفة فقد ادخل عثمان بن المثنى القرطبي (التروى عام 273 هـ) شعر ابي تمام بعد ان قرأ عليه (ابن الفرسى ص 249) وفوجي بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » بجاگازة من الجاحظ (ابن الفرسى ص 286) وابو الحكم الكرمانى رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71) .

# الاُثُرُ الصَّوْفِيُّ

منصور عبد القاهر البغدادي وربما تبعها لاصحاحها على حسب العروض المجانية .

ويبدو لي أن انقل لمؤلأه الذين يرحمون ان التصوف المغربي تأثر بالترمذة الصوفية المسيحية - لاسبما ماسينيون الذي ذمم ان الشبيخ ابن هربى الحاتمى استمد من نظريات الكتبة ما قرره المستشرق الإسبانى ابن بلاسيوس من ان نزوات دانتى (Dante) الإيطالي وأوصافه لعالم الفيپ مستمدۃ من كتب محبى الدين العاتمى دون كبرى تصرف وكذلك أكمارت الالمانى أول الفلسفة الصوفية الغربيين الذي نشأ في القرن التالى لمصر ابن هربى ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الاندلسية في الحكم والعلوم وقد اقتبس ريموند من ابن هربى خاصة في كتابه اسماء الله الحسنى لأنه كان يحسن العربية . وهاش بعد ابن هربى بقرن واحد وجعل اسماء الله الحسنى مالية وهي لم تعرف بهذا المدد في الديانة المسيحية قبل ذلك .

وسيبنتوا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه من الذات والصفات نسخة من فلسفة التصوف المسلمين مع قليل من التشوير والمسيحية تكاد تكون فارقة من الفكرة الصوفية كما امترن بذلك مشو بيلير في محاضراته ( من 29 ) حيث ذكر انه اذا استثنينا ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة القديسة تيريز والتقدس فرانسوا داسير فإنه لا يبقى شيء بالمرة .

ويقول جامى في نفحات الانس ( من 34 ) بان اول من تسمى صوفيا هو أبو الماهم التكوني الماصر لسفيان الثورى ويرى السراج في اللumen ( من 22 ) ان أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

وأول من تكلم في بغداد في المقاولة الالهية والتجريد سري السقطى ( تذكرة الاولى ج 1 من 274 ) وأول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن معاذ الرازى المتوفى سنة 258 هـ ( التذكرة ج 1 من 299 ) .

التصوف المغربي نطرة حبة من التصوف الاسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربة من آثار عميقة في الفلسفة الشرقية .

ونطرة فصل التصوف عن الروح الغربية الاسلامية نطرة شبيهة بما حاوله بعضهم امثال رونان الذى قرر في كتابه ( ابن رشد ومذهب ) (Averroës et l'Averroïsme) من ان ما يسمونه فلسفة عربية ليس الا مجرد محاكاة او تقليد لارسطو وضربيا من التكرار لرأيه وافكار اليونانيين كتب باللغة العربية ( من 7 ) ولكنه تناقض مع نفسه حيث اعترف ( من 89 ) بابن العرب مثل الابن - مع ظاهرهم بشرح ارسطو عرفوا كيف يختلفون لأنفسهم فلسفة ملائى بالتعاصير الخاصة ومخالفه جد المغالفة لما كان يدرس في الليسيوم ) ولم يخف هذا التناقض على أحد معاصرى رونان وهو دوكا الذى ذكر في مقدمة كتابه ا تاريخ الفلسفة وعلماء الكلام المسلمين انه لا يمكن لعقلة كمقبلة ابن سينا الا ان تنتج جديدا .

ونقد ضربت مثلا بالفلسفة ( 50 ) لما بينها وبين التصوف من وثيق الصلة حتى قيل ان التصوف نطرة من مذهب الفارابي الفلسفى لا ظاهرة هوية فيه كما يزعم كارادوفو صاحب ا مفكرة الاسلام ) وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالترمذة الصوفية في ا رسالة هي بن يقطان ) حيث وصف بطل القصة ( من 114 ) بأنه (ما فنى من ذاته ومن جميع الالوات ولم ير في الوجود الا الواحد القيوم وشاهد ما شاهد ماد الى ملاحظة الافيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بياله ان لا ذات له يغاير بها ذات الحق وان حقيقة ذاته هي ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء الا ذات الحق ) وقد ذهب الناس مذاهب شئ في تعريف التصوف حتى ساق ابن السبكي في طبقاته ( ج 3 من 239 ) الفتعريف سهل على التقاطها من مختلف المصادر ابو

(50) احمد بن عبد الله بن محمد الدزرم الراكنى نزيل القاهرة جنج الى التصوف الفلسفى ونسخ الفتوحات المكية والتنزيات الموصولة فكان ابو حيان لذلك يرميه بالزنادقة وصار هو يصف ايا حيان بأنه ظاهري حتى في النحو .

واحمد بن ابراهيم بن احمد بن سفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الالاهية تلميذ ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

وقد أصبح التصوف مذهبًا منظماً الناء الجزء الأخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويُلوح من ثنايا الرسالة التشيرية والتذكرة ونفحات الآنس ان صوفية هذا القرن الخدوان القرمان والستة مبران لم يُعْيَّج ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجودانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوالب مربية إلى الفكرة الصوفية التي بدت نقية ظاهرة وقد ذكر مبد الله الانصارى المروي المتوفى سنة 481 هـ أن كثيراً من الأكاذيب انتشرت باسم أبي يزيد البسطامى مثل قوله صمدت إلى السماء وفربت قبضى بازاه المرعش (نفحات الآنس ص 63) وهو القول الذى بنوا عليه قضية معراج أبي يزيد التى يقصها فريد الدين العطار في تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه الع Vad ووجهات نظر من دان به لأن تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الآلف ورد منها مائتان في الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات المديدة تدل على تعدد وجوه النظر في تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الآسيوية سنة 1906 ص 330) فقد مرر الكرخى التصوف بأنه الإله للحظائق واليأس مما في إيسدي الغلائقي (الرسالة التشيرية ص 149) ووصفه أبو حفص الحداد بأنه تمام الأدب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر أبو الحسين التورى أن التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر أبو سعيد بن المريسى أن التصوف ترك الفضول (نفحات الآنس ص 348) وقال أبو الحسن البيوشنجي : التصوف شعب الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدت ظهر قبل نهاية القرن الثاني المجري وأول خانقاه اسس لتصوفة المسلمين (على ما في النفحات من 34) كان بالرملة في فلسطين وذكر المقريزي في خطبه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات - او الخانقاوار كما يسمىها - وجدت في الإسلام في القرن الخامس المجري .

والخانقاه اعمق في التزم والرهبة مما عرف بعد بالروايات لأن هذه الخانقاهات كانت مبنية في مضمونها على نظام سارم من التبتل والرهبة .

أن تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذى لا يشمل الجانب السياسى والاقتصادى والاجتماعى نحسب بل يتتجاوزه إلى الجانب الثقافى والروحى . على أن التصوف الغربى كان له كبير التأثير فى توجيه وتلويح جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته فى مصنفات لم يكن من المنتظر أن تحفل به ثالث بعد أخبار الصوفية وحياة الرهاد ووصف العركات الطرقبية التى قامت فى المغرب فى وقت مبكر - مبشرة لن كتب التاريخ والتراث والمناقب والفتاوى والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح مبارزة ملي المرشد ومعيار الوشريسى الذى تجوى أجزاؤه ثقافة متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لباس بها فى وصف التبارات المعاكسة التى خلقها ابشق الطرقبية فى المغرب .

ويطلب على ظلنا أن الحركة الصوفية كانت انشط فى الجبل (اسسيا الريف) والقرى منها فى العواصى الهم الا بعض مدن الساحل التى كانت مهبطاً لصوفية الاندلس كسبتها واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وناس نظراً لاشعاعها الثقافى الذى تجذب له النفوس .. وممما يكن ثان أولى الترجم الصوفية انما حظيت بها قسرى البايدية كتاب «المقصد الشريف والمزع الطيف» لن ذكر صالح الريف «لعبد الحق البايدى 1 فى القرن الثامن 1) والهزمى فى ترجمة ابن يعرى «والحمد لله رب العالمين» لابن تجلات فى مناقب الاخرين الهزميريين الذين عاشوا ردها طويلاً فى ائتمانات ثم حظى صوفية المدن بكتاب منها «النهاج الواضح» فى ترجمة ابن محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميد ابن مدبن الفوث 1 ومدينة أسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابى محمد صالح صالح كما قامت مدينة زرهون حول ضريح ابى الادرسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتأسسه جامع الخطبة الكبير التصل بالضريح وكذلك وزان 1) «والسلسل العذب الاخل فى صالحه فاس ومكناسة وسلا» لمحمد الحضرمي الذى منفه فى القرن الثامن وكذلك «الكوكب الواقاد» فى حل بسبعة من العلماء والصلاحين والمياد 2) .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللمعي السوسي الذى كان يسمى دار الرباطين وقد اخذ مجيماً لطلبة العلم وقراء القرمان حسبما ورد فى التشويف (ص 36) الذى نجد من بين رجاله الصوفية كثيراً من «المعلمين» المنقطعين لتعلمهم

الى ارتكز انتهاجها على مذهب صولسي اساسه التاویل الرمزی للقرآن على طريق الاصنافية التي لعبت دوراً كبيراً في تبلور الفكر الصوفية في الاسلام ! .. ومنها الطائفة الاندلسية التي اسماها محمد الاندلسي نزيل مراكش وكان رجلاً مولماً بالطب والكيمياء نسب الالمة فانهى فناء الحمراء بخليمه وزوج به السلطان في ثياب الجن .

وقد ظلل المغرب خلال المصور الاولى بعيداً عن الطوائف الفاسلة ومن النظريات الشاذة التي كانت تصف اذ ذاك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشى الذى صفت كتاباً فى البدع والمحاولات فى رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم فى الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث فى الدين !

فنحن لا نكاد نجد اثاره بدعة جافية فى ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان ننشر فيما صفت خلال القرون الاولى كالتشوف على الشارة الى شلدوه هذه الصوفية او صدور دعاوى ناوية منهم لان التصوف كان اذ ذاك مطبوعاً بالساطة ولم يكن الصوفية يختلفون من بقية الناس الا بكثرة المبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الادعية وكانت الاذكار نفسها مقتبة من الآثار الوارددة ومن القرآن من ذلك بعض الاعراض لاسيما احزاب الشاذلى التي تناقض مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقة والمرقة صفة لازمة للصوفى المقربى الا اذا جاء ذلك مفوا من طريق الزهاده فى منع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجتمع لقراء العلم وتلاوة القرآن والجهاد فاذا طالعت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيراً من رجاله كانوا « معلمين » او مدررين يعلمون القرآن للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة إلى القرن الثالث كوحدة الوجود والخطول والتعدد بلسان العقيقة المحمدية والإيفال في لسان الرئمات والندسas

كتاب الله . وهذا مظهر لان نوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وسترى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى العبودية بالقرآن تعبدات بالادمية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بكل منها كرباط ماسة ورباط بيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محله يربط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي ورقاق كان يربط فيها نحو مائة الف من الفراة الذين كانوا يتبعون مقاومة التحالف البرغواطي .

وبين هذه وتلك الرابطة التي اشتتها ميد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبعد فيها ثلاثة أشهر مع نفر من كدارلة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير منهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفا من أشراف منهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على أساس فكرة مذهبية بعد الدولة المرارية في سجلة والدولة الأدريسية في الشمال وقد نجح استعداد المغاربة الروحي المجال للنهاية المهدوية مثل محمد بن تومرت الذي أسس دولة الموحدين والبيضاوي الذي قام بعده في جبل ورقة من أحواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب أول عام 600 هـ .

وكانت نفس العركة ملحوظة كذلك في الاندلس أيام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) أن احمد بن قس ابني مسجداً في بعض قرى ثلب (بالبرتغال) وتحددت بالإباضيل ، كما ادعى النبوة ابراهيم الفراوي الساحر .

وقد تسربت إلى المغرب من الاندلس الطائفة المسرية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العثماني بتنقيذه وهي طبعتهم الإمام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة إلا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تنس بالطبع الظرفية إلا أنها من المذهب

(51) عدد الرباط والروابي في سبعة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارباض ١ اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéria م 12 عام 1931 ص 155 .

فنا بن على الجعوه من جانب الغرب  
ل فيما حبيب لي يوم به قلب

غير ان طريقة هذه التي كانت سنية المعلم ما  
لبثت ان انحرفت بما دسه فيها الدخلاء والادعاء  
وأنصار الغرائب من الدجالجة والمبين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه «شفاء السائل» نزد الطرقية إلى اصولها وحل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا من الادهيماء.

وفي القرن الناجي عزز محتسب الصوفية  
الإمام الناقد الشيخ زروق بكتابه « مدة المريد الصادق  
من أسباب الملت في بيان الطريق وذكر حوادث  
الوقت »، وقد عمل انتشار المثلية والأدعية بالتقاسم  
الإيمان والجهل بأصول الطريقة وافتقاد أن الشريعة  
خلاف الحقيقة ( وهذا منه من مباديء الرندة )  
وحب الرياسة مع الشرف من أسبابها ثم أكد أن  
الصوفية العقليين أنفسهم عرضة للخطأ وإن  
مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة وإن  
الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف الا  
بنفقه .

وقد تعرض الى الاسس العملية التي بنى عليها  
الطرقيون مذهبهم فذكر انهم قرروا مخالفة النفس  
بكل وجه وفلطروا في هذا الاطلاق لأن المقصود موافقة  
الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد  
شمول مصر بن مد العزيز :

« اذا وافق الحق الموى بذلك الشهد بالردد »

الانهياه في صنوف النزهاء حتى كان القشيري ينشد  
اذا جلس اليه الصوفية وعليهم البيات والمرقفات  
اسياتها منها :

اما الغبام ثانها كغيمهم  
وارى نساء العي لمبر نسائهما

ثم يقول أما الميئات والمرئيات لمعروفة وأما  
القلوب فمكرونة وكان الجنيد ينشد :  
**أهل التصوف قد مثروا**

مار التصوف مخرفة

مسار التعرف ركيزة

وجادة ومذلقة

غير ان الفكرة الصوفية ما لبست ان شعريت  
فشرب اليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن  
المجري على ان انتشار الطرقية واندساس الادمياه  
في الروايا والربيات فانتحل الكثير المذهب الصوفي  
لاغراض لا تمت الى الروح بصلة واصبح التصوف  
مرضا للانبياء يستخله كل من يريد التوصل الى  
امراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدعيس على  
الموام والدهماء فتجزدت الطرقية من شئ مظاهر  
الرواء والسمو والجاذبية والجمال

ويبدات الفكرة الصوفية المغربية تبلوراً منذ القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستجدّة وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتبّع إلى أواخر القرن الثاني عشر حيث اتسعت الخطوط واكتملت الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من التأليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطراقيهم.

والحقيقة ان التصوف بدا يتدهور منذ اصبح  
في متناول العام تلوكه السنتم في غير هدى ولا  
اتزان ولن اشرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة  
ابي محمد صالح دفين اسفي وطريقه ابي مدبن  
الفوتو فقد كان اماما ذالع الصيت يرد عليه الصوابية  
حتى من مصر للأخذ منه وانتشرت طريقته خللال  
القرن السابع عشر تلاميذه في الشام وببلاد الكشانة  
حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

الجوزي من المشارقة قد تسبوا هم أنفسهم بالتصوف السنى وإذا رجعنا بين المتأخرین إلى سيرة محمد بهد وجدها لم ينده ممعنی بد الرائق يؤکد في الكتاب الذي خصه لترجمته أن الشیخ درویش الریتیری الصوفیة في الاستاذ ويعلل هذا التأییر قائلاً : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهدیب الاذواق بفنون الجمال الحسی فان التربية الصوفیة تدعو الى تلطیف السر بانواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سیرة مبدہ المشور في المجلد الثانی من المشارق انه لکثرة الانتماء في الذکر والنظر في کتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج ( اي الاستاذ ) عن حسه ويرجع في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول لیناجی ارواح السالقین » وقد كان التصوف والتفسیر هما « قرة عین الاستاذ » على حد تعبیر مصطفی بد الرائق غیر ان جمال الدين الانقاضی « خلع محمد بهد من التصوف بمعنى الدروشة والانقطاع الى التحنت والرياضۃ الى معنى للتصوف جدید ( ص 74 ) وقد ترجمت محمد بهد شیخه الانقاضی في صدر رسالتہ الدهریین فوصفتہ بأنه « حنیفی مع مبل الى مشرب السادة الصوفیة رضی الله عنہم » .

وتحمل زکی مبارکہ على الصوفیة ما شاء له نکره الشار وقوله الجامع ولكنھ عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامی » : الصوفیة هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » ( ج 2 ص 205 ) وقال : « ان الصوفیة امقل من الابداء وشرف سیاقس الصوفیة ربهم راضین مبتسئین اما نحن فنستذهب الى النار في رکاب امریکه القیس الذي اندله الرسول » ( ج 2 ص 322 ) .

وقد قدر للسائل الصوفیة الریتیریة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف المصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مراجعتها واللون الخاص الذي تکبف به روحها في العیة وقد لاحظ ذلك زروق في قوامده ( القاعدة رقم 59 ) .

(52) ذکر الشمرانی في « تنبیه المتریین » ( ص 7 ) ان بعض الناس دس في كتابه البحر الورود في المواریق والمهد وفى مقدمة كتابه « کشف الغمة من جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنۃ واثار ذلك فتنۃ في الجامع الازهر ولم تخدم الفتنة الا بعد ان ارسل السختین الاصطبغین المجازیین من بعض مشایخ الاسلام الى العلماء الازھریین للاظلاء عليهم وقد اشار الشمرانی في كتابه الى م استحدثه کثیر من مشایخ وفقراء مصره مما يخالف السنۃ حتى اصبحت اموال التصوف غریبة مند منتحل الطریقة

الله . والشمرانی (52) نفسه كان ينتمی مربیدیه من فرقاء کتب التصوف والتوجیہ المطلق كمحنتات ابن عربی وفیره من « فلامة الصوفیة » ( البحر الورود ص 274 ) وهذا لا يتناقض مع ما جاء في مقدمة الیوازیت والجواهر من الدعوة الى کتب ابن عربی فانه احترس هناك – كما يقول زکی مبارکہ – حين اتفع الريید بأن ما جاء في کتب ابن عربی مخالف الشرع انا هو من وضع الدسسين .

کما حمل البوysi في محاضرائه حملة شعواء على ادبیاء الطریقة ورسم لنا صورة مما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من انحس في خطبرته من مفرشین فقد قال : « تم ظاهر بالخير من لا خبر فيه من مجئون او معته او موسوس او ملبس ليقع به الافتخار للجهلة الامغار .. وقد يشاشه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » ( ص 39 ) ومن العرب ما حکاه البوysi ( ص 40 ) ان رجلا ورد على سجله ماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البداية المغرية اکثر ایفاً في الابداع واشد انحرافاً من الروح لفلبة السداۃ على اهلها الذين كانوا يصلون في التبرک بالآثار الصالحة حد الشلود .

وفي القرون الاخیرة اختلت المقايس وتشعبت الدعاوى واستفحلت النحل تکنت ترى أنواع الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضی الله عنه كل سنة للوقوف به يوم عرفة وبسمون ذلك حج المکین وتجد آخرين يسمون انفسهم باهل الخواطر يتجمعون بأحد مساجد معدوة الاندلس للتحدث من الخواطر ومرضاها على الشیخ وتاویلها غير ان علماء الصوفیة كانوا حربیین على فضح الدجاجلة الذين يندسون في حظائرهم النساء لامراض الدنيا وحططها على ان دماء السلفیة امثال الطرطوشی وابن العربی المغاری وابن محفوظ راشد من المغاربة وابن القیم وشیخه ابن تیمیة وابن

المصر ذروتها . لكن سقوط الدولة الرينية كان على بد الصولية بسبب ما اتسم به بعض أمراء بنى وطاس من بيع وانحلال .

لقد انتشرت شرارة الثورة السعودية من سوس نسمت البلاد ملتهما ما يقسى من نفوذ الوطاسيين وأغلب ما في الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعودية ما لبث ان انتقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الزوايا منذ سنة ٩٥٨ وذلك خوفا على ملكه لما كان للعامة في اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفي أيام زيدان تضييع نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر في كثير من السواحل وكانت شوكة الصولية قوية وجاذبها منها حيث بلغت الزاوية الدلائية هنفوانها .

وقد قام شد زيدان احد الادباء التمهيدين وهو احمد بن ابي محل الذي توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العالم .

ولما استقر الملوك العلويون بالشغور في المغرب نفس مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها في بطن الرمان اوائل المحرم عام ١٠٧٩ هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجهز مخطنه للزحف الى زاوية درمة ولكنها عدل من ذلك بعد ان تحقق صدق ولبة الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التي لم تكون في ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وتترتب فيها اي القرمان والاذكار والمعوذات فلم ير المولود ما يدمو الى استئصالها يزيد ان الاستثمار وسائل الاستعمار السدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التي كانت تسري في هذه البيوت الظاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي اي الفلسفة الروحية والخلقيات الغربية وجلا تنقلت مقالاته السيارة في قراوة النفوس فقومت اودها طوال اجيال متواالية وطبعت التصوف الغربي بيمى خاص المرillet منه الحقيقة الصوفية في قوالب شرقية وروح التوكل في صورة السبب ولطالع الروح واسرار النفس في اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدى يوسف الفاسي الغوري - ويمكن

وإذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان اقطاب التصوف كانوا في نفس الوقت جهابشاً للفنون وزعماء الفنون وقد ذكر صاحب «نشر المائني» انه لو لا للالة لانقطع العلم من المقرب في القرن العادي عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درمة ومحمد بن ابي ابكر الجاطي رئيس زاوية الدلاء ومبد القادر الفاسي الذي تلورت في مهده الطريقة الزروقية وغالب فقهاء فريقيا - كما قبل - تلاميذه وقد قيل في العرب ابن ابي المحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده ومهما ابو زيد الذي افاض ابو العباس المقربي في وصف فرارة مادره لعلماء مصر عندما سأله عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسيوطى لوفرة علمه وقد تحضر ابو زيد تربية المريدين وتلقين الاوراد على سعة معلومه وذكر صاحب الذبياج ان محمد المقربي تكلم في طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون في التصوف «اقامة المريد» و«رحلة المبتلى» و«كتاب الحقائق والرقائق» الذي شرحه زروق .

وقد تمضي الحركة الصوفية من نمو وازدهار الثناء في ربوع المغرب لاسيما الباادية ولا يخفى ما ادى الى ازدياد الناصرية والدلالية من اباد بيساء في هذا الباب وقد كان في زاوية محمد بن وسden السوسي تسممائه طالب يكتسبهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبراته هذه اربعين سنة .

وكان كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير لهذا ابو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشيخية في آداب السلوك ويلتف حوله خلق كبير وفي آخر حياته نفس يده من سائر العلوم الاخرى وانتصر على التفسير والحديث والتصوف ولأبي المحاسن هذا كان اذا توجه من قاس الى القصر تعطلت الاسواق او كانت لخروج الناس تقابلته .

وهذا النفوذ الذي كسبه العولية جدا المربطين والمحدثين الى امتحانهم حيث استدعوا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف وابي الحكم بن برجان وابي مدین الغوث .

وقد هدات نوها ما حركة الامتحان في هذه المرينين الذين لم يكونوا يخشون امتحان نفوذ الصوفية لأن الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التي بلغت في ذلك

والقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراسى  
الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات  
الإحصائية فاضطر الملوك إلى المساهمة فأسسوا  
الزوايا في الفلوات لابواء عازمي السبيل وأوقفوا لها  
الأوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه «شفاء السائل» حيث قال : « وقعني بعض الاخوان ابتقام الله على تقييد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهد والفقهاء والمياد يخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك بزار وبحار العلم والدين ترخر وتواكب الله بعد لانصار دينه وخلافتة ويدخرا طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقق في التوحيد الذوقى والمرفقة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الذوقية ورفع العجب عن العالم الروحاني تعلما من الكتب الموضومة لاهله واقتداء باقوالهم الشارحة لكيفية تكفي في ذلك مشانة الرسوم ويطالمة العلوم والامتناد على كتب البداية الوافية بشرط النهاية والبداية كالاحياء والرهاية ام لا بد من شيخ يبين دلالته ويحدّر مواليه ويميز المرشد هند اشتباه الواردات والاحوال مسائله فتزلزل منزلة الطيب للمرتضى والامام العدل للامة الغوّس » .

ثم تحدث عن افراض التصور ومصطلحاته  
فقال : « في بيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من  
هذا الغرض » فمن ذلك تحليله للكشف من الصوفية  
بقوله : « وبيان ذلك ان البصر اذا رأى شخما  
ثم لم يستطع الاجفان دونه يقى متخللا ثم اذا فتح اجفانه  
مرة اخرى رأه كما كان في بين الحالتين كشف »

وقد تحدث باهباب من هذه المصطلحات فقال :  
 « التفسير التعليم والموافقة في المواجهة الخامسة  
 المنفردة من الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون  
 لهم في مذاهبهم والغافل مخصوصة بمغان من

القول بأن نظريات هذا الرجل المغلقة والنفسيّة والالهية تترك لمها خلاصـة النظريات المفربـة في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ من العالم الادنى ليمرق الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحصن صدفه وانخلاصه وتضليل اثابته لنتكشف في باطنها حقائق وتحتاج في سره رقالق وتعرض له احوال وجданية لا تنضبط ولا ترتبط بيمهد ونقد تسمى روحانية الصرف فيتجبره من بشريته ويتحدد اي في التوحيد لأن الفنان هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذاتية وجدانية ( فمن ذاق - كما يقول الشيخ يوسف - عرف ومن لم يلذ نسلا حرج اذا سلم واعترف وهذه طرائف تقصّر منها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم منك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك ) .

وقد تجلى ابرز مظاهر للتصوف الحقيقى فى المغرب فى افوار التسامح والسلام فى المجتمع واسعاف طبقاته المعززة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيض وطأة البوس فهناك مذهب صوفى مغربى بحث يرجع الفضل فى وضع اسمه ونشر دمه به لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبئي (53)، الذى كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة لكان يجعلس فى الاسواق والطرق بعض الناس على البذر والجروج مرددا بكلماته الخالدة :

( أصل الخير الاحسان و اصل الشر البخل )  
وقد اشتهر مذهبة ابما اشتهر حتى نعنه معاصره  
العاماني في نوحاته المكية بصاحب الصدقة ليس  
مراکش .

وقد كان لهذه المعرفة البرها فاست الملاجىء في مختلف أنحاء المغرب حيث كان يأوي المجرة

(53) وجه ابن رشد الى مراكش لما قرطبيا للدرس نظريته التي لاحظ انها مرتکزة على المبدأ القائل بـ «الوجود ينفعل للجود» وقد لاحظ التادلي في ملحق التشوّف (الاعلام للمراكشي) - فاس 1355 ج 1 من 240 انه «برد اصول الشرع الى الصدقه» وكان القرهان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه المخار هو صاحب مياض - كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق ليحضر الناس على الصدقه» وكان يعبر دفع البدين للتكبير للتخلص من كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالغروب من كل شيء وان سر الصوم الجوع وتذكر الجميع والزكاة التدريب على البذل .